المحاضرة السادسة

نظريات التعلّم (النظرية البيولوجية / الفطرية / اللغوية)

تمهيد:

في خضم ثورة فكرية ضد التيار السلوكي المهيمن والبنيوية الجامدة، ظهرت "النظرية البيولوجية" للغة والإبداع البشري كمنهج جريء ومبتكر. هذه النظرية تتحدى النظرة التقليدية للغة كنظام ثابت، وتطرحها بدلاً من ذلك ككائن حي ديناميكي، يتشكل ويتجدد وفقًا لاحتياجات الإنسان ورؤيته. من خلال المنهج الاستبطاني، تغوص النظرية في أعماق العقل البشري، كاشفة عن العلاقة الحيوية والمعقدة بين اللغة والفكر والمشاعر، مما يعيد تعريف فهمنا لطبيعة اللغة كظاهرة خلاقة ومتفاعلة مع الواقع الإنساني. في هذه الرحلة الفكرية، ندعوك لاستكشاف رؤى هذه النظرية التي ستغير نظرتك للغة، وتفتح آفاقًا جديدة لفهم التداخل الجميل بين اللغة والعقل البشري. لنبدأ معًا هذه المغامرة الشيقة!

1-تعريف النظرية البيولوجية:

النظرية البيولوجية للتعلم، التي يُطلق عليها أيضًا النظرية الفطرية أو اللغوية، تُبرز الجوانب الفطرية والبيولوجية في اكتساب اللغة والإبداع البشري. تتحدى هذه النظرية، التي يُعد ناعوم تشومسكي أبرز روادها، النظرة التقليدية للغة كنظام ثابت، وتعتبرها ظاهرة ديناميكية وخلاقة تنبع من القدرات العقلية الفطرية للإنسان. وفقًا لتشومسكي، اللغة ليست مجرد رموز، بل هي تعبير عن الفكر والإدراك، مدعومة بـ"جهاز اكتساب اللغة(LAD) "، وهو آلية فطرية تُمكّن الأطفال من تعلم اللغة بسرعة وسهولة دون تعليم صريح .

تؤكد النظرية أن اللغة ليست أداة تواصل فحسب، بل انعكاس للإبداع البشري، كما أشار روبرت جيرفيس، حيث يبتكر الإنسان مفردات وقواعد للتعبير عن رؤيته الفريدة للعالم. تتجاوز هذه النظرية الاختلافات الثقافية، وتركز على الأسس البيولوجية المشتركة بين البشر، كما أوضح ستيفن بينكر، الذي اعتبرها كاشفة لجوهر الإنسانية وقدراتها المعرفية الفريدة .

رغم الانتقادات التي تواجهها، تُقدم النظرية البيولوجية إطارًا تفسيريًا جذابًا لطبيعة اللغة والتعلم والإبداع، وتُعد ذات تأثير عميق في علم اللغة وعلم النفس المعرفي والعلوم المعرفية.

2. الجذور الفكرية للنظرية البيولوجية: (استكشاف المرجعيات الفلسفية والمعرفية)

تستمد "النظرية البيولوجية" جذورها الفكرية من تفاعل عميق بين الفلسفة والعلوم المعرفية، حيث تتشابك مع تيارات فكرية متنوعة شكلت رؤيتها الفريدة للغة والإبداع البشري. استكشاف هذه الجذور يكشف

عن الإطار الفلسفي والمعرفي الذي تقوم عليه النظرية، مبرزًا دور العقل الفطري، والتطور البيولوجي، والعلوم المعرفية في تفسير طبيعة اللغة كظاهرة إنسانية فريدة.

1.2. على الصعيد الفلسفي:

تأثرت "النظرية البيولوجية" بشكل كبير بالتيار العقلاني، كما في فلسفة رينيه ديكارت، الذي أكد على مركزية العقل الفطري في المعرفة، مُلخصًا ذلك في مقولته الشهيرة: "أنا أفكر، فأنا موجود". كما استلهمت النظرية من الفلسفة الوضعية، التي تعتمد على المنهج العلمي والملاحظة التجريبية، مما عزز تركيزها على الجوانب الملموسة للغة وربطها بالعمليات الدماغية .

في صميم النظرية تكمن الفلسفة المعرفية، التي تؤكد على البنى المعرفية الفطرية للعقل البشري، كما عبّر عنها جيرزي لوكاس بقوله: "المعرفة البشرية تنبثق من قدراتنا العقلية الفطرية التي تشكل أساس فهمنا للعالم". هذا التفاعل بين العقلانية والوضعية والفلسفة المعرفية يُشكل الإطار الفكري للنظرية البيولوجية، مبرزًا دور العقل الفطري والتجربة العلمية في تفسير اللغة والإبداع البشري.

2.2. على صعيد العلوم المعرفية:

استفادت "النظرية البيولوجية" من أبحاث علم النفس المعرفي وعلم الأعصاب، حيث دعمت دراسات جان بياجيه حول تطور الإدراك لدى الأطفال فهم اكتساب اللغة، بينما قدمت أبحاث جوزيف لودو في علم الأعصاب أدلة بيولوجية على وجود بنى معرفية فطرية في الدماغ. كما أشار الباحثون، فإن هذه الدراسات "توفر نافذة لفهم الأسس البيولوجية للغة والإدراك ."

تنبع قوة النظرية البيولوجية من تنوع جذورها الفكرية، التي تجمع بين الفلسفة والعلم، مما يمنحها عمقًا وأصالة في تفسير اللغة والتعلم والإبداع البشري. فهم هذه الجذور يُبرز مدى شمولية وإبداع هذه النظرية في فهم الطبيعة الإنسانية.

3- أسس النظرية البيولوجية: (الغوص في أعماق مبادئها الجوهرية)

تستند "النظرية البيولوجية" إلى عدة مبادئ أساسية تشكل إطارها المفاهيمي لفهم اللغة والإبداع البشري :

1.3. الفطرية البيولوجية: تؤكد أن القدرة على اكتساب اللغة واستخدامها متأصلة في تركيبتنا البيولوجية، مع استعداد فطري يُفسر سرعة تعلم الأطفال للقواعد اللغوية المعقدة .

2.3. جهازاكتساب اللغة :(LAD) تقترح وجود آلية معرفية فطرية في الدماغ تُمكّن الأطفال من تعلم اللغة بشكل طبيعي وتلقائي، حتى في البيئات اللغوية المعقدة .

3.3. الإبداع اللغوي: تُبرز الطبيعة الديناميكية والخلاقة للغة، حيث تتجاوز كونها نظامًا ثابتًا لتصبح أداة للتعبير عن الأفكار والرؤى الفريدة .

4.3. العلاقة بين اللغة والعقل: تُشدد على التشابك الوثيق بين اللغة والعمليات المعرفية، مما يجعل اللغة نافذة لفهم طبيعة العقل البشري .

هذه المبادئ تُظهر رؤية النظرية البيولوجية للغة كظاهرة بيولوجية ومعرفية جوهرية في الطبيعة البشرية.

4. التعلّم وفق النظرية البيولوجية:

ترسم "النظرية البيولوجية" رؤية ديناميكية للتعلم، حيث تُبرز الاستعداد الفطري للإنسان كنقطة انطلاق، مدعومة بأفكار "ناعوم تشومسكي" حول "النحو الكلي" الذي يُفسّر القدرة الفطرية على تعلم اللغة. تُصور النظرية التعلّم كـ "مغامرة استكشافية"، كما وصفها "جان بياجيه"، حيث يبني الفرد معرفته عبر التفاعل النشط مع بيئته، وليس كعملية سلبية لتلقي المعلومات .

رغم تركيزها على الفطرية، تُقر النظرية بدور البيئة في صقل القدرات الفطرية، إذ توفر السياق الذي يوجه الاستعداد الطبيعي نحو اكتساب المعرفة. كما تؤكد على "التعلم مدى الحياة"، معتبرة إياه رحلة مستمرة تُثري العقل في كل مرحلة عمرية .

من خلال هذه المبادئ، تقدم النظرية إطارًا يجمع بين الفطري والبيئي، مما يعزز فهم التعلم كعملية حيوية ومستمرة، ويفتح آفاقًا لتطوير ممارسات تعليمية أكثر فعالية واستجابة لاحتياجات المتعلمين.

5. تحديات النظرية البيولوجية:

تواجه "النظرية البيولوجية" عدة تحديات وجدالات رئيسية :

1.5. انتقادات الفطرية البيولوجية: يُنتقد تركيزها المفرط على الاستعداد الفطري، مما يقلل من دور الخبرات البيئية والثقافية في تشكيل اللغة والإدراك. يجادل النقاد بأن التجربة الإنسانية المعقدة لا يمكن اختزالها في عوامل بيولوجية فحسب .

2.5. تحديات منهجية: تعتمد النظرية على الاستبطان والتحليل النظري، مما يصعب اختبار فرضياتها تجريبيًا. كما أن الطبيعة غير المرئية للقدرات الفطرية تجعل التحقق من صحتها أمرًا معقدًا .

3.5. التوفيق مع النظريات الأخرى: تواجه صعوبة في التوفيق بين مبادئها الفطرية ورؤى النظريات اللغوية والمعرفية الأخرى، مثل البنيوية أو البنائية، مما يخلق توترًا فكريًا .

4.5. التطبيقات العملية: رغم عمقها النظري، تكافح النظرية لترجمة مبادئها إلى ممارسات تعليمية عملية، مما يحد من تأثيرها المباشر في الفصول الدراسية .

هذه التحديات تُبرز الحاجة إلى توازن بين الفطري والبيئي، وإلى دمج رؤى النظرية مع النظريات الأخرى لتحقيق فهم أشمل للغة والتعلم.

في الختام، تُقدم "النظرية البيولوجية" رؤية قوية وأصيلة حول القدرات الفطرية المتأصلة في الطبيعة البشرية، لكنها لا تخلو من تحديات وجدالات تتطلب تفكيرًا عميقًا. أبرز هذه التحديات يكمن في التوفيق بين مبادئها الفطرية والتأثيرات البيئية والاجتماعية التي تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل اللغة والإدراك. لاستكشاف هذه الجوانب المثيرة للجدل، يجب دمج رؤى النظرية البيولوجية مع النظريات الأخرى، مثل الاجتماعية والثقافية، لتحقيق فهم أكثر توازنًا وشمولية .

تجاوز حدود النظرية يتطلب الاستفادة من مبادئها في تصميم ممارسات تعليمية فعالة، تعكس التفاعل بين الفطري والبيئي. هذا النهج لا يُثري فقط عملية التعلم، بل يفتح آفاقًا جديدة في البحث العلمي، حيث تُستكشف تعقيدات التجربة الإنسانية وتنوعها، مما يُسهم في تطوير رؤى أعمق وأكثر دقة في فهم اللغة والإدراك البشري. إنها رحلة فكرية مثيرة نحو فهم أشمل للطبيعة الإنسانية.